صفحات من «سيرة ذاتية»

عن الأصل والمولد والأسرة...

الدكتور سهيل ادريس

وُلدت في بيروت يوم السابع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٢٥. ولكن تذكرة هويّتي الحالية تقول إني كنت من مواليد ١٩٢٣.

وتفسير هذا الاختلاف بين التاريخين وارد في سجلّات المقيمين لإحصاء ١٩٣٢ بالمديرية العامة للأحوال الشخصية، وهو عبارة «صُحِّح تولّده من سنة ١٩٢٥ بقرار المحكمة في جلسة ٩٤١/١٢/٤».

لماذا صحّحوا تولُّدي بتكبير عمري سنتين؟

أذكر أني أنهيت عام ١٩٤١ دراستي في «الكلية الشرعية في بيروت»، وعزمت على السفر الى القاهرة للالتحاق بكلية الآداب في الجامعة المصرية. ولكني فوجئت بأنّ السفر الى الخارج، وكانت الحرب العالمية الثانية ما تزال قائمة، محظور على من كان عمره دون الثامنة عشرة...

ما العمل إذن؟

قال قريب لي: «نقيم دعوى في المحكمة بأن خطأ قد وقع في تأريخ ولادتك، ونطلب تصحيح الخطأ...»

قلت: «ولكن هل تقبل المحكمة؟»

أجاب قريبي: إذا تقدَّم شاهدان، فشهدا بوقوع الخطأ.. وسيكون الأمر يسيراً لأن المطلوب هو تكبير العمر.. ولو كان المطلوب هو تصغير العمر لكان الأمر أصعب جداً!

سألته: وأين الشاهدان؟

قال: أنا أحدهما... ولن يصعب علينا العثور على الآخر!

وهكذا كُبِّر عمري... بشاهدي زور!

وما كنت بحاجة لأن أتساءل عن سرّ حماس قريبي لتأدية هذه «الخدمة» لي، فقد كنت على يقين من أنه يعرف أن علاقة حب كانت تنسج خيوطها بيني... وبين ابنته.

وعلى أني حفظت لقريبي «معروفه»، وحمدته له، فقد اشتدَّ نفوري من الزور... وعاهدت نفسي على مكافحة التزوير في كل شأن من شؤون الحياة، حتى ولو كانت الغاية من التزوير أحياناً غاية نبيلة!

والحق أن تكبير عمري لم يَعُد عليَّ بأي نفع.. فقد عدلت إدارة الكلية الشرعية عن إيفادي الى القاهرة لدراسة الآداب، بعد أن نزعتُ الجبَّة والعمَّة...

بل إنني كنت أجد مشقّة وعُسراً بإقناع الناس بأني أصغر سنّاً مما تشهد به تذكرة هويتي، وكنت أجد من المضحك أن أعمد، كلما دعت الحاجة، الى إبراز وثيقة تصحيح العمر...

ومع الوقت، نسيت الموضوع أو تناسيته، لا سيما بعد أن تزوَّجت، ووجدتْ زوجتي أن من نقص العقل أن تحاسبني على عامين أكثر أو عامين أقل، أي إذا كنت أكبرها بتسع سنوات أو بإحدى عشرة سنة!(*)

وما دام الحديث عن تذكرة الهوية، والشيء بالشيء يذكر كما يقول الناس، فإنها تثبت أن الجنسية لبناني، وأن المذهب: مُسلم سنّي.

ما زلت حتى اليوم، بالرغم من جميع النكسات والانشقاقات والفواجع القومية، آمل أن يأتي اليوم الذي

(*) حين قرأت زوجتي هذه العبارة، قبل أن أدفع بهذا المقال الى المطبعة، احتجَّت عليّ قائلة: «هل من الضروري أن تكشف على صفحات الجرائد حقيقة عمري؟».

يحمل فيه أبنائي أو أحفادي أو أحفاد أحفادي هوية لا تحمل إلا كلمة واحدة: عربي.

* * *

اسم أبي: شريف ادريس.

ويُقال إن أصلنا من المغرب، ككثير من الأسر اللبنانية التي هاجرت منذ مئات السنين من المغرب واستوطنت البلاد العربية. ويُقال كذلك إن أجدادي ينتمون الى الأدارسة الذين أقاموا دولة لهم في المغرب الأقصى في القرن الثامن، وبنوا مدينة فاس، ويرجعون بنسبهم البعيد الى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

والحق أنّي لم أهتم يوماً بما يُسمَّى شجرة العائلة، ولم أتساءل أكنت في أصلي من الشرفاء أم من الدهماء، لأني نشأت على الإيمان بأن «الفتى من يقول هأنذا، وليس هو من يقول كان أبي»، على ما علّمونا منذ نعومة أظفارنا.

بيد أني حين بلغني أن للأدارسة وقفاً في مدينة «فاس»، دفعني الفضول، وكنت مع زوجتي في زيارة للمغرب عام ١٩٨٤، للتوجه الى «فاس»، علّني يصيبني من هذا الوقف رذاذ...

وتبيّن لي هناك أن الوقف في المقام الإدريسي ضئيل هزيل، يتنازعه الكثيرون، فآثرت أن أهرب... خشية أن أطالَب بما لست أعلمه من ضرائب قديمة!

وأتممنا تجوالنا في دروب فاس الضيّقة التي لا تدخلها السيارات. وفي طريق العودة، أدركتنا عربة نقل يجرُّها بغلٌ في زقاق ضيّق حُشرت فيه زوجتي، فأصيبت بخدوش في جانب عنقها وكتفها، وسمعتها تتمتم، وهي تتوجَّع قائلة: ... أنت وأجدادك!

كان أبي، على ما يروي الأقرباء، من أغنياء التجار في منطقة المرفأ بالعاصمة، حيث كان يدير مع عمّي تجارة «مال قبّان». ولكنه كان يتجاوز الكرم والأريحية الى الإسراف والتبذير. ويروون أنه دعا الى عُرسه الراقصة بديعة مصابني، وأنه أهدى عروسه عقداً من اللؤلؤ كان باهظ الثمن، كما أهدى الى القريبات من فتيات الأسرة، بتلك المناسبة، عقوداً ذهبية؛ وظلّت الأفراح في البيت قائمة طوال أسبوع، والمائدة مبسوطة بالطعام والحلوى لكل مهنّىء من الزوّار. ولعلَّ هذه السعة في الإنفاق كانت على سبيل التعويض من أنه تزوَّج وهو في زهاء الأربعين من عمره بعروسه التي لم تكن تتجاوز الثالثة عشرة...

وأمّي سهيلة غندور، هي من أسرة تُعَدّ في أسر بيروت البورجوازية التي منها عائلات الداعوق وبيهم والشيخ وفتح الله وسواها، وقد هاجرت من المغرب في موجات متتالية، وتوزَّعت بين ثغور المتوسط وبلدان الجزيرة العربية.

أمّا أمّها، جدّتي أسماء غندور، فقد تأخَّر زواجها من جدّي ابن عمّها مصطفى غندور الذي كانوا قد «قطعوا سُرّتها» عليه لدى مولدها. و«قَطْع سُرّة» فلانة على فلان كناية عن رصدها لتكون زوجته في المستقبل باتفاق الأسرتين. وقد جعلوا أسماء تنتظر حتى بلغ مصطفى الثانية والعشرين. ولم تكن هي تصغره إلاّ بأشهر قليلة. وكان من نتيجة هذا الانتظار أن اكتسبت أسماء نضجاً وخبرة، فطلبت لدى عقد الزواج أن يكون طلاقها «بيدها»، وربما كانت من أوائل الفتيات البيروتيات اللواتي طالبن بهذا؛ والواقع أنها لم تلبث طويلاً حتى استعملت هذا الحقّ، إذ اكتشفت بعد أشهر من مولد ابنتها، أمي سهيلة، أن زوجها كان على علاقة براقصة يهودية تعمل في أحد مراقص حيّ «الزيتونة» في بيروت... وهكذا حصلت جدّتي على الطلاق من جدّي، وبقيت أمّي في كنفها. ثم تزوَّجت أسماء عمّي مصباح ادريس الذي سهَّل زواج أخيه، أبي شريف، بابنتها سهيلة، بالرغم من الفارق الكبير في السنّ. أي أن الأخوين تزوَّجا الأمّ والبنت. وهكذا يكون أخوالي أبناء عمّي في الوقت نفسه... وقد كانت هذه أُحجية أتسلّى أحياناً بطرحها على الناس: كيف يكون المرء خالاً وابن عم في وقت واحد؟

ألحقت جدّتي أمّي بمدرسة «سان جوزيف» التي تدرس فيها قريباتها، وتُعنى عناية خاصة بتدريس اللغة الفرنسية. وقد كانت أمي مجتهدة في دراستها وذات نباهة، وتمكنت من التحدّث بالفرنسية في وقت قصير، وكانت مغرمة بالمطالعة، ولكن تزويجها، وهي في الثالثة عشرة من عمرها، حال دون أن تواصل تحصيلها، ولم تلبث طويلاً حتى أصبحت أمّاً.

اشترى أبي للسكن منزلاً كبيراً ذا طابقين في محلة «البسطة التحتا» المشرفة على «الخندق الغميق». وقد زرت مؤخراً هذا البيت الذي وُلدت فيه، والذي أصبح منذ حين «مدرسة الزهراء»، وهو يضم عشر حجرات جُعلت صفوفاً للدرس، بالإضافة الى «دارين» كبيرين وفناء واسع جُعل ملعباً للأولاد. ولا تزال «المشربيات» قائمة على السلّم الحجريّ الذي يوصل الى الطابق الأعلى، كما لا تزال بعض كُوى في أعالي الجدران رُكِّب فيها زجاج ملوَّن مؤطَّر بعروق من البرونز. على أن سقف هذه الطبقة العليا كان قد انهار بعد إصابته بقذيفة من قذائف الحرب الأهلية، فأقيم بدلاً منه سقف خشبي يعلوه قرميد أحمر.

في ذلك البيت، وُلدتُ على يديْ «داية» تُدعى «أمّ سليم» كانت تولِّد نساء الأحياء. ولكنّ أمّي كانت تُعارض أن يُختن الطفل الذكر عند مولده «حرام... سيتألّم كثيراً. ولا أستطيع أن أتحمّل رؤيته وهو يتوجَّع». كانت تقول، وهي

تـذكر مـا عانـاه أخي الأكـبر. وعبثـاً حـاولت الأمّهـات من قريباتها إقناعها بتعجيل «التـطهير»، «لأنَّ الـولد حـين يكبر، يقولون، يعصى، وغالباً ما يهرب من المطهِّر»... حتى بلغت الثالثة من عمري، فخطفتني «عاتكة» التي كـان لأبي وأمّي قد زوَّجاها بابن أخت أبي على سبيل «الخطيفـة»، إذ كان أهلهـا يعـارضون زواجهـما، فطهَّـرتني مع ابنهـا «عزّة» الـذي كنت أكبره ببضعة شهـور. وحين أعـادتني الى البيت مطهَّـراً، وأنا أبكي، أخذت أمّي تبكي معي... فكان على «عاتكة» ذلك اليوم أن تهدّىء بكاء ثلاثة أشخاص!

قالت أمّي، بعد أن مسحت دموعها وابتسمت: «بي على مُقْلك يا عاتكة!»

أجابت عاتكة: «واحدة بـواحدة... خـطفتموني لتـوفيق (زوجها) فخطفت «سهيل» للمطهِّر!»

وأخذتا تضحكان وتقهقهان... ويروون أني توقَّفت قليلاً عن البكاء لأنظر إليهما، غير فاهم من الأمر شيئـاً... وحين دخلتـا الى المطبـخ لإعداد لـوازم حفلة التهنئة «بـالـطهـور»، عدت الى البكاء!

ترتبط صورة عاتكة في ذهني وأذهان إخوتي بطبَّاخة ماهـرة كـانت تدعـو العائلة الى ألـذّ طعام يُـطبخ في بـيروت. وكنـا نتسلَّل الى بيتهـا، على غـير علم من أبوينـا، فتُخرج لنـا من «المراطبين» كُتَلاً من مُربَّى القَرْع مَحْشُوَّة باللوز والجوز، نأكلها على مهل ونحن نتلمَّظ بها متلذّذين.

أمـا زوجها «أبـو عزّة» الـذي كان أبي خـالـه، فقـد كـان مشهـوراً بصنع «البـوظة» بـالحليب أو بالليمـون أو بالفـريز. وكنَّا غالباً ما نتحلَّق حول آلة صنع البوظة نتفرَّج عليـه يُديـر فيها بيد حـديديـة أسطوانـة ملأى بـالحليب المُسَحْلَب يُراكم حولها قطع الثلج، ويسمح لنا، كلٌّ بـدوره، أن نحرِّك هـذه اليد الحديدية حتى تكلّ يدنا الرخصـة. ولم نكن نحتاج أكـثر من سـاعـة، حتى يجمـد الحليب ويتحـوَّل الى أشهى بـوظـة يتحلَّب لها الريق وتُثلج صدورنا الظمأى.

كان «أبو عزّة» معلِّماً كبيراً في «سوق الخضار» يوصيـه أبي على كميَّات هائلة من الفاكهـة يُرسلهـا الى بيتنا بـأكياس من الخيش، تُـوضـع في «غـرفـة المـونـة» التي لم نعـرفهـا يـومـاً فـارغة... وغـالباً مـا سمعت عبارة: «أبـو وجيه... يحبّ بطنه» يتداولها الأقرباء وهم يتغامزون. وكان لأبي كَرشٌ أنفـر منها لأنه لم يكن يتـورَّع عن تنفيسها بـريح يُـطلقه بـين الفينة والفينة دون تحرّج حيثما تنقَّل في المنزل.. وسمعتُ أمّي ذات يـوم، بعد أن فـرغنا من غـداء تجشَّأ منـه أبي، تقـول بتقـزّز «أعـوذ بـالله! مـا هـذا! من فـوق ومن تحت!» فضحـك أبي طويلاً، حتى أضحكنا جميعاً وعلى رأسنا أمّي!

* * *

وأنا ثاني سبعة رُزقهم أبي وأمّي.

يكبرني «وجيه»، بِكْـر العائلة، بـزهاء عـام ونصف. وقد قطع دراسته في نهاية المرحلة الابتدائية، ملتحقاً بمتجر خالي، لنفوره من الدرس أولاً، وحاجة أبي، بعـد أن آل الى الفقر، الى من يعينه للقيام بأود الأسرة ثانياً. وأما أخي منـير، الذي يليني، فـإن عوز العـائلة نفسه هـو ما اضـطره اضـطراراً الى وقف دراسته، بالرغم من اجتهاده وحسن تحصيله، فـالتحق بعمل في مقهى «الأوتوماتيك» الذي كان يملكه الخال نفسـه. وأمـا أخي الأصغـر، أنس، فقـد وُلـد بعـد ثـلاث بنـات، وبذلت أمّي كل جهدها لإجهاضه فأخفقت.

كانت وجيهة، كبرى البنات الثلاث، موضـع اهتمامي لمـا كـانت تتمتَّع بـه من ذكاء وطمـوح الى بلوغ مرتبـة عليـا من التحصيـل. وحين أنهت دراستهـا الثانـوية في كليـة المقاصـد الاسلامية للبنـات، ووافقت جمعية المقـاصد عـلى إيفادهـا في بعثة للتخصص في التربية بالقاهرة، وقفتُ في وجـه معارضـة أبي لسفـرها، وشجعتهـا على نـزع الحجـاب، وظللت أدعم جهدها الدراسي، حتى نالت دبلوم التربية وعلم نفس رياض الأطفال من جامعة ابراهيم باشا بالقاهـرة. وحين عـادت الى بيروت، تولَّت تـدريس مادة الـتربية في بيت الأطفـال التابـع لجمعية المقاصد الاسلامية، وتزوَّجت المحامي شفيق الوزان، الذي أصبح، في الثمانينات، رئيساً للوزارة في لبنان.

وأمـا أختـاي الأخـريـان، عـائشـة ويُسْر، فقـد تـزوَّجتـا بتـاجـرين من تجَّـار بـيروت، وأصيبت يُسْر، وهي في شرخ الشبـاب، بنزيف في رأسهـا قضت منـه نحبهـا، فخلَّفت في قلوب أفراد الأسرة نزيفاً من الحزن لا يرقأ...

* * *

كـان أقربـاء أبي من آل مبسوط وفـايـد والحلواني وكـوش والسردوك ينزلون منازل متجاورة حول بيتنا الكبير، يتزاورون ويتضايفون ويتبادلون الودّ، ويعيشون في شبه «قبيلة»...

وكـان أبي، بشهادة الأقـرباء، مُسرفـاً مبذِّراً، أغـراه على ذلك غناه في التجارة، وامتناع أمي عن معارضته، تجاوباً مع وضعهـا الاجتماعي الميسـور. وكان كثـيراً ما يُـولم للأقـرباء، بمناسبة وبغير مناسبـة. ويبدو أن أحـد التجَّار من زبـائنه قـد استغـلَّ نزعـة الكرم لـديـه، فـأقنعـه بـأن يكفله لـدى تجَّـار آخـرين، بمبلغ كبير من المـال. وكان في ذلـك خدعـة ذهب ضحيتهـا أبي الطيِّب القلب، إذ أُعلن إفـلاس ذلك التـاجـر بعـد يومـين، فأصيب أبي وعمّي، من جـرَّاء دفع الكفـالـة، بضربـة قاسيـة في مالهـا الـذي أجهـزت عليـه صفقـة فـول استورداه في سفينة تجارية من مصر، إذ وصل الفول مسوّساً الى المرفأ، فأُلقي في البحر، وآل أبي وعمّي، كـالتاجـر الذي كفلاه، الى الإفلاس!

وأحسَّت العائلة بأن وضعها الاقتصادي قد تغيَّر بعد أن باع أبي منزل «البسطة التحتا» ونقَلَنا الى طابق أرضي استأجره في محلة «برج أبي حيدر».

وفي ذلك المنزل، أيقظتنا ذات صباح، طرقات عنيفة على الباب. وما كاد أبي يرى الطارق حتى سارع الى إغلاقه، فإذا بالرجل ينفجر بالشتائم والسباب، وينعت أبي بأقبح النعوت، مطالباً إيَّاه بردّ ماله، فأدركنا أن أبي كان مديناً له، ولكنه عاجز عن الوفاء بدينه. وكنا ننظر الى أبي ممتقع الوجه، يرشح جبينه عرقاً، ولا ينبس بكلمة.

ولعلَّ هذا المشهد، الذي لم أنْسَه يوماً، كان السبب في نفوري الشديد من الدَّين... والدائنين والمدينين، وحرصي طوال حياتي على ألاَّ أكون مديناً لأحد.

والحق أني كنت، على ما أذكر، أشعر بشيء من الذلّ حين كنت أقف مع أخويَّ كلّ صباح، ونحن في طريقنا الى المدرسة، أمام باب تاجر صغير للحبوب، ليُعطينا خمسة قروش، هي «خرجيّتنا» اليومية، سَداداً لِدَيْنٍ لأبي لدى ذلك التاجر، منذ وقت طويل. كان ذلك أشبه بالاستعطاء و«الشحاذة»، وكنت أرفض أن أقوم بهذا العمل حين كان أخي يُحيله إليَّ، بين يوم وآخر، فأذكِّره دائماً بأنه هو الأخ الأكبر، وأن أبانا قد عهد اليه وحده بهذه المهمة!

وازداد إحساسي بالمذلّة حين فهمت أن أقساطنا المدرسية، نحن الثلاثة، كان يدفعها لصندوق كلية المقاصد الاسلامية التي أُلحقنا بها في المرحلة الابتدائية، زوج خالة أمّي الوجيه الثريّ أنيس الشيخ. ثم تحوَّل ذلك الشعور الى ما يشبه الحقد على ذلك الثريّ، لأنه لم يكن يُرسل الى منزلنا سائقه، فيحملنا مع أولاده كل صباح بسيارته الفارهة السوداء «الناش» الى المدرسة.

قال لي أبي، حين طالعته بذلك الاحتجاج: «اسكت! شحَّاذ ومُشارط!»

ويبدو أني لم أفهم آنذاك قصده. ومع ذلك، فقد سألته بلهجة لا تخلو من تعجُّب:

ـ ولماذا أصبحنا شحَّاذين؟

صاح أبي بلهجة غاضبة:

ـ استغفر الله! إيَّاك والكفر، يا ولد!

ولم أُجب بشيء، بل أخذني بعض الخوف من أن أكون حقاً قد كفرت...

* * *

قضينا بضع سنوات في «برج أبي حيدر»، ثم انتقل بنا أبي الى منزل آخر في «البسطة التحتا» ليكون قريباً من المسجد الذي عُيِّن فيه ليؤمّ المصلِّين فجر كل يوم.

وكان أبي يرتدي ثياباً تجمع بين الدينيّ والمدنيّ: فهي تتألَّف من بنطال كالبناطيل المدنيّة، وإن كان أوسع، وسترة كجبب المشايخ، وإن كانت أقصر. وكانت عمامته تختلف عن عمامة المشايخ الأسطوانية البيضاء، بأنها رقيقة سمراء، تسمَّى «شرخانة»، تُلَفُّ على طربوش أحمر، وهي مطرَّزة بخطوط مذهَّبة.

لم يكن أبي رجل دين، بل رجل تديُّن، أخذ من بعض علوم الدين بأطراف. وكان يحفظ القرآن ويروي الحديث، ويدعو أصدقاء له وأقارب الى لقاءات دينية وحفلات ذِكْر يحضرها أحياناً بعض «المولوية» الدوَّارين. وكنت أتسلَّل الى غرفة الاستقبال فأجلس على مقربة منه أستمع الى المدعوين يقرأون سورة الكهف أو سورة يس، فيشجعني مربتاً على كتفي، ويصحبني لتأدية صلاة الجمعة والاستماع الى خطبتها. ولكني كنت أحبّ، أكثر ما أحبّ، مثابرته على صلاة الفجر في جامع «البسطة التحتا». وقد طلبت منه يوماً أن يوقظني فجر اليوم التالي لأصحبه الى الجامع، فسرَّه ذلك، ورافقته سعيداً بعد أن توضَّأت، وصلَّيت مع المصلِّين الذين أمَّهم، ثم عُدت معه الى البيت، مسحوراً بذلك الجوّ الدينيّ وبصوت أبي الحنون وهو يتلو آيات من القرآن في ركعتيْ صلاة الفجر...

وفوجىء أبي يوماً حين استمع إليَّ أتلو القرآن، فقال لي مبتهجاً:

ـ لم أكن أعرف أن صوتك جميل!

قالت له أمّي بلهجة افتخار:

ـ إنك لم تسمعه وهو يغنّي لعبد الوهاب أو أم كلثوم!

كانت أمّي تعشق صوت أم كلثوم، وتحرص على الاستماع إلى حفلتها الشهرية من إذاعة القاهرة. وأذكر أننا كنَّا نقصد، سيراً على الأقدام من منزلنا في برج أبي حيدر، بيت «أبو عزّة» في «البسطة التحتا»، لنسهر على صوت أم كلثوم عبر جهاز الراديو الذي كان قريبنا من أوائل الذين اقتنوه في بيروت... كان الخميس الأول من كل شهر يوماً عزيزاً علينا ننتظر حلوله بفارغ الصبر، لنحيي ليلته مع أم كلثوم، غناءً ساحراً يهزّ أجسامنا ونفوسنا، نتمايل منه طرباً ونشوة، ونتابع آهات المستمعين المصريين وصياحهم وتصفيقهم، وتردِّد أمّي: «آه يا ثومة! آه يا ثومة!» ويردِّد أبي: «سبحان من وهبك هذه الحنجرة!».

وسهرنا، ذات ليلة من ليالي الربيع، على سطح منزل «أبو عزّة» في ضوء القمر، نستمع إلى أم كلثوم تصدح بأغنيتها التي حفظتُها «رقّ الحبيب وواعدني يوم...» كنا نجلس فوق «طراريح» بُسطت على السطح. وقد ألجأنا ضيق المكان وكثرة الساهرين إلى ما يشبه التلاصق في المجلس، فألفيتني إلى جوار فتاة من قريباتي أحسست بذراعها العارية تلامس

ذراعي فتبعث في جسمي رعشة لذّة... وحين زدت التصاقاً بها لم تبتعد ولم تتراجع، بل حسبتني ألمح على شفتيها طيف ابتسامة... وتنبّهت فجأة إلى أن نهدها بدأ يبزغ على صدرها، فعجبت لذلك إذ كنت أعلم أنها في مثل سني وأنا لم أبلغ العاشرة بعد!

قضيت تلك السهرة مع أهلي، أستمع إلى «آهات» أم كلثوم، ترافقها أنفاسي المتقطّعة ورعشات خفيفة في جسمي ورجفة في يدي التي تتحرّق إلى ضمّ ذلك النهد الطفل على صدر «أميّة...»، ولكن يحول دون أن تسعى اليه ضوء قمر ساطع ظننت، حين حدّقت فيه، أنه يبتسم ساخراً مني...

حين عُدت مع أهلي الى المنزل قرابة الفجر، كنت أتساءل في ضيق: أليس بعيداً، أطول مما ينبغي، الخميس الأول من الشهر القادم؟

وبعد أرقٍ طويل، عانيت فيه من جسمي، نمت من إرهاق وأنا أحسُّ بأني أزداد شغفاً... بصوت أم كلثوم!

* * *

ليلة الخميس الأول من الشهر التالي، قصدنا منزل «أبو عزّة» لإحياء السهرة مع «مطربة الشرق». كان الجو حاراً، وكان الزوّار قد صعدوا جميعاً الى السَّطح فاحتلّوا ساحته وأركانه، مقتعدين الطراريح، و«أبو عزّة» جالس في الوسط وحوله الأولاد يتفرَّجون عليه وهو يدير آلة «البوظة».

وأخذتني الحيرة أين أجلس، فالحضور كثيرون متلاصقون، ولم تترك لي «أميّة» مكاناً بجوارها...

وقد رميتها بنظرة عتاب، فردَّت عليّ ببسمة!

وتدبَّر إخوتي أمرهم في الجلوس، وبقيت أدير عينيّ أبحث عن مكان، حتى رأيتها... «أميّة»، تنهض متجهة إلى السُّلَّم. وقبل أن تهبط الدرج، التفتت إليّ وغمزتني بعينها... يا إلهي! كيف أوتيت تلك الجرأة!

أحسست بقوّة تدفعني من ظهري وتحرِّك قدميّ باتجاه السُّلَّم.

وحين بلغت أسفل الدرج، توجَّهت إلى «الدار»، فوجدتها واقفة في زاوية، عند باب مفتوح، كأنَّها كانت تنتظرني. وقد مشيت إليها، يأخذني الخوف من أن يكون ثمة أحد. ولكني حين سمعتها تقول: «كلُّهم فوق»، اقتربت منها فأمسكت بيدها، فإذا هي تدني وجهها من وجهي، وتجرّني الى داخل الغرفة.

ضممتها، فأحسست بنهدها على صدري.

وحين انسلَّت يدي إليه وهصرته، سمعتها تتمتم بصوت واهن، من غير أن تتراجع: «عيب!»

لم أجب بكلمة، وظلَّت يدي تشدّ عليه حتى قالت: «إنك توجعني!» ونظرت اليها، فإذا عيناها شبه مغمضتين ووجهها ممتقع.

كنت أهمّ بالانحناء لأقبِّل نهدها، وهو في يدي كالعصفور، حين سمعنا وقع قدمٍ تهبط الدرج.

تركتها مرتجفاً، واتجهت مسرعاً نحو السلَّم دون أن ألتفت إليها، فالتقيت على الدرج «عاتكة» هابطة الى «الدار» فقالت لي: «أسرع لتأخذ حصَّتك من البوظة قبل أن تنتهي!».

وظللت أرتعش، حتى رأيت «أميّة» تصعد الى السطح، وكان وجهها شديد الاحمرار. ولم أتنفَّس الصعداء إلا حين رأيتها تبتسم لي.

تلك الليلة، لم أجد لذّة في أكل «البوظة»، ولم أطرب لصوت أم كلثوم.

كان ذلك، على ما أذكر الآن، أوَّل لقاء لي بالجنس الآخر.

صدر حديثاً — **عن دار الآداب**

سهيل ادريس
في قصصه ومواقفه

بقلم الدكتور جورج أزوط

أشمل دراسة وأكملها عن مؤلف «الحي اللاتيني» و«الخندق الغميق» وسواهما من الروايات والأقاصيص